عقدة اللون الأسود عند عنترة

إعـــــداد

الباحث/ عبدالعزيز غنام المطيري

معد برامج في وزارة الإعلام الكويتية

تاريخ الاستلام : ١٣/ ٤/ ٢٠٢١م

تاريخ القبول : ١٠ / ٥/ ٢٠٢١م

ملخص:

تناول هذا البحث نبذة مختصرة عن الشاعر عنترة بن شداد الملقب بالفلحاء، ووصفاً تمهيديّاً عن حياته للتطرق إلى أشعاره وتوضيح دلالات اللون الأسود فيها، وما قصده وما عناه، وقد توقفنا قليلاً عند دراسة الأستاذ عباس محمود العقاد، الذي أظهر الجوانب النفسيّة والوساوس القهريّة عند ابن الرومي من خلال استقراء أشعاره وكانت هذه الدراسة في كتابه (ابن الرومي، حياته من شعره)، ثم تناولت سطور قليلة في البحث وصفاً لأخلاق عنترة وعقيدته، وقد تم التمهيد لتفاصيل اللون الأسود ودلالاته في شعر عنترة بالتطرّق إلى مرادفات ومعاني اللون الأسود عند العرب، والمواضع التي ورد فيها اللون الأسود في القرآن الكريم، ثم تم التوسّع في أشعار عنترة التي تطرق فيها إلى اللون الأسود ومناسبة هذه الأشعار ودلالاتها في نفسه، حيث يعد السبب الرئيس الذي جعل عقدة اللون الأسود تستقر في مخيّلة عنترة وعقله الباطن، وجعلته أيضاً لا يستطيع التخلص منها.

Abstract:

Research deals with a brief summary of the poet Antara bin Shaddad, nicknamed the peasantry, and an introductory description of his life to touch upon his poetry and clarify the connotations of the black color in it, and what he meant and what it meant. Through the extrapolation of his poems and this study was in his book (Ibn al-Rumi, his life from his poetry), then I dealt with a few lines in the research a description of the ethics of Antara and his creed, and the introduction to the details of the black color and its connotations in the poetry of Antarah was made by addressing the synonyms and meanings of the black color among the Arabs, The black color was mentioned in the Holy Qur'an, and then the poetry of Antara was expanded in which it touched upon the black color and the occasion of these poems and their connotations in himself, as the main reason that made the black color complex settle in the imagination of Antara and his subconscious mind, and made him also unable to get rid of it.

تمهيـــد

عنترة العبد الأسود ابن زبيبة الجارية الحبشيّة التي سرى إليه السواد منهـا. العبوديّة أولاً ثمّ اللون ثانياً، وكلاهما مرتبطان بالدلالة نفسها وهي النظـرة الدونيّـة والاستعباد والتحقير من شأن هذه الطبقة من البشر عند العرب في ذلك الزمن الـذي عاش فيه عنترة، فقد خلقت هذه المعاناة عنترة الفارس العظيم، وبفضـل فروسـيته وشجاعته انتزع نسبه وأجبر أباه على الاعتراف به حيث أصبح ابن شـدّاد، بعـدما كانوا يسمونه ابن زبيبة، وصار فارس القبيلة وحاميها؛ بعدما كان عبداً من عبيـدها. ويروى أن سبب نيل عنترة حريته الغارة على قوم على عبس، فلجأ شداد إليه وطلب منه المشاركة في صد العدو، " حيث قال له أبوه: كرّ يا عنترة، فقال: العبد لا يحسن الكرّ إنما يحسن الحلاب والصرّ، قال: كرّ وأنت حر فقاتلهم واستنقذ ما فـي أيـدي القوم من الغنيمة فدعاه أبوه بعد ذلك وأعطاه حريته".(١)

وبالرغم من أن عنترة أخذ الحريّة التي طالما سعى لنيلها، واستمات عليهـا، وبالرغم أيضاً من أنه صار من سادة القبيلة وأشرافها بعدما كان من عبيـدها، إلا أن عقدة اللون ظلت متجذرة فيه ولم يستطع التخلص منها، وكثيراً ما ظهرت هذه العقدة في شعره، فتارة يتناولها بالتلميح وتارة أخرى بالتصريح.

إن ظاهرة دراسة الظواهر النفسيّة من خلال اسـتقراء جانـب مـن شـعر الشعراء وتسليط الضوء عليه، لها أسس في النقد العربي الحديث، ومن الأوائل الذين وضعوا اللبنة الأولى لهذه الدراسات هم العقاد وطه حسـين، اللـذان تنـاولا فيهـا شخصيات بعض الشعراء القدامى كانت تسترشد في فهم هذه الشخصـيّات بـبعض الحقائق النفسيّة في رسم صور صادقة لهؤلاء الشعراء، ومن هذه الدراسات، كتـاب العقاد عن ابن الرومي، وكتاب آخر عن أبي نواس شرح فيهما شخصيّة الشاعر في ضوء مجموعة من الحقائق النفسية والعلمية.(٢)

فالألوان هي صور تعبر عن موضوعات الحياة، وانفعالات الفنان بها، والتدقيق في الآثار الأدبيّة يرشدنا إلى أن استخدام اللّون في هذه الآثار ليس صدفة، وليس لتنميق الكلام فحسب بل له ارتباط وثيق بجميع المستويات البنيويّة، والبلاغيّة، والتعبيريّة للنص الأدبي(٣).

ومن خلال أشعار عنترة بن شداد سوف نشرح الأبيات التي حضر فيها اللون الأسود لتبيان الأثر النفسي، وما يحمل من دلالات توضح الأسباب التي دعت الشاعر لاستحضار مثل هذه الدلالات، واستقراء هاجس اللون الذي طالما أرقه وتبيان أثره وتأثيره على حياة عنترة الفارس وعنترة العاشق.

نبذة مختصرة عن الشاعر:

في نسب عنترة روايات متعدّدة أبرزها: عنترة بن شداد بن معاوية بن ذهل بن فراد بن مخزوم بن ربيعة بن مالك بن غالب بن قطيعة بن عبس. ويرجّح أن ولادة عنترة كانت بحدود سنة ٥٣٠م.(٤) وتوفي في سنة (٦٠٠ م) أو (٦١٥ م)، (٢٢) قبل الهجرة.(٥)ويلقب عنترة بالفلحاء، فيقال (عنترة الفلحاء). وكانت أمه حبشية يقال لها زبيبة، وكان لها أولاد عبيد من غير شداد. وكان أبوه قد نفاه (وكان العرب في الجاهلية إذا كان لأحدهم ولد أَمَةٍ استعبده)، ثم ادعاه بعد الكبر واعترف به وألحقه بنسبه. وكانت العرب تفعل ذلك؛ تستعبد بني الإماء، فإن نجبوا اعترفوا بهم، وإلا بقوا عبيداً.(٦)

أخلاق عنترة:

إن القارئ المتصفح لديوان عنترة حينما يقرأ قصائده سوف يجد أن معظمها تتحدث عن مبادئ الشرف والسمو وكلّ الخصال الحميدة التي كان يتحلى بها، من شجاعة وشهامة ونبل وكرم وإباء وأنفة.. إلخ. ومن الصفات التي كان يتصف بها عنترة الشهامة والشرف والسماحة والحياء والأمانة في صون عرض الجار، وغض

البصر عن حرماته، حيث يقول:

وأغضُّ طرفي ما بدتْ لي جارتي حتـــى يُواري جـــارتي مأْواها

إنّي امرؤٌ سمْحُ الخليقةِ ماجـــدٌ لا أُتْبِعُ النّفـــْسَ اللَّجوجَ هواها[٧]

فقد أوضح الشاعر في البيت الأول هذا الخلق المحمود الذي يتخلق به وهـــو غضّ بصره عن جارته، وعلل في البيت الثاني فعله النبيل الذي فعله ويفعلـــه كلّمـــا بدت له جارته، أنه كان بسبب صفة سماحة الخلق التي نسبها لنفسه، كما قام بتعزيز هذه الصفة وتأكيدها في قوله (ماجد)[٨]

ومن الأبيات التي ذكرها عنترة في شعرة، ما أُنشد للرسول صلى الله عليـــه وسلم:

ولقد أبيتُ على الطـــوى وأَظَلُّهُ حتـــــى أنـــالَ به كريمَ المأْكَلِ

فقال صلى الله عليه وسلم: ما وصف لي أعرابيّ قـــطّ فأحببـــتُ أن أراه إلا عنترة.[٩] فقد حمل هذا البيت دلالة العزة والإباء. فصبره على الطوى أي الجوع[١٠]، وعدم سؤاله للناس وهو في أمس الحاجة، هي صفة من صفات السادة الأشـــراف لا العبيد.

اللون الاسود عند العرب

يستخدم هذا اللون للظلام، والصمت، واليأس، والخيبـــة، والفنـــاء، ورمـــز الحزن، والهم، والموت، والإخفاق، واللون الذي يمثل الظلم، والضلالة، والغضـــب، والإثم، والكفر. وقد ورد اللون الأسود سبع مرات في القرآن الكريم بعضـــها تمثـــل الكفر والارتداد والعصيان والتكذيب. فسواد الوجه يرمز إلى سواد الـــروح وتلوثهـــا وتجسم في وجوههم: " وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ"[١١].

الأسود أشد الألوان عتمة وأغمقها، دللت عليه اللغة العربية بألفاظ تدل على كل ما هو ضد الجمال والحياة، أو ما هو مناف للاطمئنان والسلام. كما خصّته بمفردات تصفه وتحدّد درجاته فقالوا: "أسود حالك وأحم وفاحم وقاتم وغربيب وخداري ودجوجي وديجور ومصلخم وغرابي وأدجن وأدعج وأدلم وأدغم وأدهم وأسحم وأبخس وبهيم وأسحمان[١٢].

واللون الأسود رمز خيبة الأمل في المجتمع الجاهلي فقد نعت العرب كل شئ بغضته نفوسهم باللون الأسود، فعبروا عن الحقد بأنه أسود، ووصفوا الأكباد الحاقدة بالسوداء[١٣].

اللون الأسود في شعر عنترة

إنّ عقدة اللون الأسود عند عنترة، قد استقرت في مخيلته، واستمرت بمطاردته، ولم تنفك عنه حتى بعدما نال حريته، وحطّم قيود عبوديّته، وهذا ما يتّضح في ذكره للون الأسود بمواضع عديدة تعكس الآثار النفسيّة لهذا اللون عنده، لاسيما أن اللون الأسود في الغالب هو لون بشرة العبيد ويرمز للعبوديّة، بالإضافة إلى أنه لون التشاؤم والتطيّر عند العرب، وقد اشتهرت دلالاته المجازيّة بما يحمله من المعاني السوداويّة.[١٤]

ومن الأبيات التي ذكر فيها لونه الذي يعيبونه فيه ويذكّرونه بأن هذا اللون هو لون العبيد الذين ليس لهم نسب، قوله:

لئنْ يعيبوا سوادي فهوَ لي نسبٌ يَوْمَ النِّزَالِ إذا مَا فَاتَنِي النَسبُ[١٥]

في هذا البيت ثورة واستهجان ورفض للمبادئ والعادات السائدة عند العرب، وهي تلك المبادئ التي ينظر فيها لنسب الرجل من غير النظر لماهيته وذاته، فيعزّ فيها الأذل لانتسابه بالنسب الأعز، ويذلّ فيها الأعزّ لانتسابه بالأذل. فهنا انتسب عنترة لذاته ولونه الذي يعرف به ويشار إليه وقت الحرب والضرب، وافتخر بسيفه

وفعاله، وترك الافتخار بالنسب لمن يحتاجه ويقتات عليه، ولا يستطيع العيش بدونه.

فعنترة قد أراد التعويض بالفروسية عن نسبه، وكأنّه عشق الفروسيّة وامتطى صهوة جواده من أجل أن يسد ثغرةٍ فيه، ويكمّل النقص الذي يعتريه، فعقدة اللون قد حرّكت دواخله، وفجّرت مكنوناته، وجيّشت مشاعره نحو تحقيق غاياته.(١٦)

فعقدة اللون الأسود عند عنتر والتي تشير لرمزيّة العبوديّة؛ جعلته يجابه أعداءه بالبسالة والشجاعة، محاولاً إثبات أنّ معيار الشرف والصدارة هو للفعل الشريف وليس للنسب الشريف، وأنّ العبد بشجاعته في ميدان المعركة خير من ألف حر. حيث يقول:(١٧)

أنا العبدُ الذي خُبِّرْتَ عنْـــهُ يُلاقـــي في الكَريهةِ أَلْفَ حُرٍّ

إنّ الاعتداد بالنفس والتعويض بها عن النسب، قد تناوله كثير من الشعراء الذين شعروا بالنقص في هذا الجانب، فحينما نقرأ شعر المتنبي نجد أن الاعتداد بالنفس واضح المعالم ومحدد الملامح عنده كقوله:

لا بقومي شرفت بل شرفوا بـي وبنفســي فخـرت لا بجـدودي

انا ترب الندى وربّ القوافـي وسمام العدى وغيض الحسـودي

أنا في أمّة تداركهـا اللـ ـه غريب كصالح في ثمـود

ويتضح من الأبيات الثلاثة الآنفة قوّة في الشخصيّة ترتكز إلى اعتداد قد تأتى من نوازل الزمان التي أحاقت بشاعرنا فوجد نفسه إزاء موقف تملي عليه أن ينبري للتذكير بأنه عصامي في التكوين، وأنه حين يعتدّ بنفسه إنما يبتغي إضفاء هذا الاعتداد على ذويه، وهذا يكسبه استشعاراً مضاعفاً من حيث القوّة والتوجه والعطاء وتخطي عوائق الحياة، بخلاف من يفاخر بجدوده ولا يقتحم صعاب دنياه.(١٨)

ومن شعر عنترة أيضاً الذي يفخر فيه ويتباهى بالخصال الحميدة ومكارم الأخلاق، وبفعله الذي يشهد له كلّ من شهده وسمع به بالحرب أثناء المبارزة والطعان، وبالسلم أثناء تخلّقه بالسماحة والإحسان، فقدّم المفاخرة بهذه المحاسن على التفاخر بالأنساب، حيث يقول:

سَوادي بياضٌ حينَ تبْدُو شَمائلي وفعلي على الأنسابِ يزْهو ويَفْخَرُ(١٩)

وفي تفاخره أيضاً بذاته وفعاله على النسب، يقول:

وما عابَ الزَّمانُ عليّ لوْني ولا حَطّ السوادُ رفيعَ قَدْري

إذا ذُكرَ الفخارُ بأرض قومٍ فضرب السّيفِ في الهيجاءِ فخْري(٢٠)

تخلص عنترة من العبوديّة وانتسب إلى أبيه شداد بعدما كان ينسب لأمّة زبيبة وصار من الأسياد الأحرار، وبالرغم من ذلك كلّه فلم تبتعد عقدة اللون الأسود عنه، فهاجس نظرة الآخرين لسواد لون بشرته كان يؤرقه، وقد جاء في أكثر المواضع التي ذُكر لفظ اللون الأسود في شعره مصاحباً وملازماً للألفاظ التي تحمل معاني العيب والانتقاص، نحو تعيرني ويعيبون ويعيب وعاب، إذ يقول:

تُعيّرني العِدى بِسوادِ جلْدي وبيض خصائلي تمحو السَّوادا(٢١)

وقوله أيضاً:

وإنْ يعيبوا سواداً قد كُسيتُ بهِ فالدرُّ يسترهُ ثوبٌ من الصّدفِ(٢٢)

عندما ننظر للأبيات السابقة ونتمعن فيها جيداً، فإنّنا نجد عنترة لم ينفي صفة العيب في اللون الأسود، ولم يبحث عن الدفاع عن هذا اللون، والتغني به وإظهار جمالياته، بل بالعكس من ذلك فقد سكت عن الدفاع عنه سكوت المقر والمعترف بمساوئ هذا اللون، وراح يعوّض هذه الصفة وهي سواد جلده، بالخصال الحميدة التي نعتها بالبياض، وكأنه في هذا التعويض يحاول استبدال الحسنة بالسيئة، والبياض بالسواد.

إن نفسيّة عنترة تجاه اللون الأسود وكراهيته له جعلته يعزّز ما اشتهر من الدلالات الرمزيّة لهذا اللون، التي تحمل معاني السوء والخبث، إذ يقول:

يعيبونَ لونـــي بالسَّوادِ وإنَّمـا فِعالُهُمْ بالخُبثِ أسْـوَدُ منْ جِلْـدي

وليسَ يعيبُ السّيفَ إخْلاق غِمْدِه إذا كان في يومِ الوغى قاطِعَ الحَدِّ(٢٣)

من الواضح أن عنترة كان لا يطيق لونه الأسود، وكان يراه مثل ما يراه الآخرون، فقوله في وصف من يعيب سواده بأن خبثه أكثر سواداً من لون جلده، ففي هذا البيت قام عنترة بالمفاضلة بين اللون الأسود، وبين الأكثر سواداً، مما يعني أن اللون الأسود في مخيلة عنترة، كلما ازدادت كثافته ودرجاته كلما ازداد قبحه، ويؤكد هذا المعنى في البيت الثاني عندما شبّه لون جلده بالغمد المتقطع(٢٤) للسيف القاطع، فقد شبّه لون بشرته، بالغمد المعيب، وشبّه ذاته بهذا السيف القاطع المعجب.

من أشهر الأبيات التي قالها عنترة في ذكره للون الأسود، والذي يعتقد الكثيرون بأنها كانت في مدحه للون جلده، حينما قال:

لَئِنْ أَكُ أَسْوَداً فالمسْكُ لَوْنـي ومَا لِسوادِ جِلْدي مـنْ دواءِ

ولَكِنْ تَبْعُـدُ الفَحْشـاءُ عَنِّي كَبُعْدِ الأَرْضِ عَنْ جوِّ السَّماءِ(٢٥)

يخيّل لنا عندما ننظر إلى ظاهر البيت، أنّ الشاعر قد تغنى بجماليات اللون الأسود مظهراً جانب الاعتزاز والفخر بلون جلده الأسود حينما شبّهه بلون المسك، ولكن هذا الفهم وهذا التصور يتلاشى تماماً حينما ننظر إلى باطن البيت. فقد شبّه عنترة في صدر البيت الأول لون بشرته بلون المسك الأسود؛ والجمال في المسك ليس بلونه، ولكنه في طيب رائحته وعطره، ثمّ أردف عجز البيت بوصف اللون الأسود في جلده بأنّه داء ليس له دواء، ولو كان عنترة يقصد في الشطر الأول التغني بجمال لون المسك كلونٍ مجردٍ عن صفته وجمال رائحته، لما وصفه في الشطر الثاني بأنّه داء، وما ذهب أيضاً في البيت الثاني إلى التغني بصفاته ومكارم أخلاقه التي عادةً ما كان يعوّض فيها عن لون بشرته.

إنّ عنترة الفارس الشجاع ذو البأس الشديد حينما يكون عاشق، ويلين قلبه الصلد القوي ويضعف أمام معشوقته، فهو كسائر العشاق، ومثل أي عاشق يتمنى أن ينال إعجاب من يحب، وأن يظهر له بالصورة التي يتمناها، حيث يقول:

دَعني أَجِدُّ إلى العَلْيَاءِ في الطَّلَبِ وأَبْلُغُ الغايةَ القُصَوى مِنَ الرُّتبِ

لعلَّ عَبْلَةَ تُضْحي وهيَ راضيةٌ على سَوادي وَتَمْحو صورَةَ الغَضَبِ(٢٦)

في هذين البيتين يتمنّى عنترة بأن تراه محبوبته من ناحية الجوهر، لا من ناحية الشكل والمظهر، وقد علّل جدّه واجتهاده في طلب العلا والمعالي، كان بسبب رغبته بأن تنظر معشوقته له من جانب جوهره لا مظهره، فهو يرجو من تحقيقه للمراتب العليا أن تزيل عنه عيوب لونه عند عبلة، وبأن تنظر له نظرة الرضى على شرفه وعلو مرتبته؛ وتلغي نظرة الاشمئزاز من لونه. مما يعني أنّ طلب المجد وهذه البطولات وهذا القدر والمنزلة التي وصل إليها عنترة كانت مجرّد وسيلة لبلوغ الغاية؛ وهي بحث العاشق عن نظرات إعجاب المعشوق به.

ويقول عنترة أيضا حول هذا المعنى:

ألا يا عَبْلَ قَدْ عايَنْتِ فِعْلي وبانَ لكِ الضَّلالُ مِنَ الرَّشادِ

وإنْ أَبْصَرْتِ مِثْلي فاهْجُريني ولا يَلْحَقْكِ عارٌ مِنْ سَوادي

وإلاَّ فاذْكُري طَعْني وَضَربي إذا ما لَجّ قَوْمُكِ في بِعادي(٢٧)

ونحن نتصور أن السبب الرئيسي الذي جعل عقدة اللون الأسود تستقر في مخيلة عنترة وعقله الباطن، وجعلته أيضاً لا يستطيع التخلص منها، أن السبب هو بسبب العشق والبحث عن رضى المعشوق؛ المعشوق الذي يعلم عنترة علم اليقين بأنه لا يستطيع التحرّر من قيود التقاليد والأعراف السائدة في ذلك الزمن، وهي الأعراف التي تملي على الإنسان

حياته وتحدّد ميوله ورغباته؛ فلا تستطيع عبلة الحرّة أن تتجاوز الأعراف وتنظر لعنترة صاحب البشرة السوداء نظرة العاشقة الحرّة لعاشقها الحر. وكأن عنترة في الأبيات السابقة، يدعو عبلة للثورة على هذه المفاهيم وهذه القيود؛ كما ثار هو واستطاع فكها والتحرر منها.

منهم أبي حقا فهم لي والد والأم من حام فهم أخوالي

إنه يصر على انتمائه لقبيلته، وهو مقابل ذلك، يفخر بأمه زيبية. وبأخواله الحاميين الذين ينتسبون إلى السودان، وهو إذ يفخر بأمه، فإنه يضمن فخره بها فخراً بلونه وبجنسه، فهو لا يجد في أمه وأخواله نقيصة أو عيباً أو عاراً له[٢٨].

عقدة اللون في شعر عنترة

معلقته هي الشعر الثابت له بلا اختلاف وسبب نظمها ما قيل من أنه جلس يوماً في مجلس بعدما كان قد أبلى وحسنت وقائعه واعترف به أبوه وأعتقه، فسبّه رجل من بني عبس، وعاب عليه سواد أمّه وإخوته، وإنّه لا يقول الشعر. فسبّه عنترة وفخر عليه وقال له: والله إنّ الناس ليترافدون الطعمة فما حضرت أنت ولا أبوك ولا جدك مرفد الناس قط، وإن الناس ليدعون في الغارات فيعرفون بتسويمهم فما رأيتك في خيل مغيرة في أوائل الناس قط، وإن اللبس ليكون بيننا فما حضرت أنت ولا أبوك ولا جدك خطة فصل. وإني لأحضر اللبس وأوفي المغنم، وأعف عن المسألة، وأجود بما ملكت يدي، وأفصل الخطة الصماء، وأما الشعر فستعلم[٢٩]، فكان أول ما قال معلقته المشهورة: هل غادر الشعر من متردم. وكان قبل ذلك ينظم البيت والبيتينوهي أجود شعره. وكانت العرب تسميها المذهّبة.[٣٠]

ويسترعي الانتباه في مطلع معلقته قضيّة الوصل الفنّي عند عنترة فقد وصل نفسه بالشعراء العظام عندما جعل من نفسه تالياً في التميّز الشعري لهم، وهو بهذا ينتقم أدبياً من شعوره بذل العبوديّة؛ لأن الشعر من تمام السيادة.[٣١]

ويعد فرويد مؤسّس مدرسة التحليل النفسي الذي جعل التحليل النفسي فناً علمياً؛ لأنه يلمس أعماق النفس الإنسانية،(٣٢) وكان واعياً تماماً بالقرابة الوثيقة بين التحليل النفسي والأدب في سعيهما المشترك وراء الحقيقة وفي اهتمامهما بالدوافع الإنسانية، ويرى فرويد أنّ إبداع الفنان يرجع في مصدره إلى الرغبة في التخفيف من عبء خاص، وإلى محاولات تحقيق رغبات في عالم الخيال لم تشبع في عالم الواقع.(٣٣)

وقد ذكر عنترة في السواد ومشتقاته، مثل قوله في المعلقة واصفاً نوق الارتحال:

فيها اِثنَتانِ وَأَربَعونَ حَلوبَةً سوداً كَخافِيَةِ الغُرابِ الأَسحَمِ

وكل النظريات التي حاول علماء النفس ابتداعها حول الأثر النفسي الذي يحدثه العمل الأدبي داخل المتذوق لم تذهب بعيداً عن نظريّة التطهير التي وضعها أرسطو قبل الميلاد بثلاثة قرون ونصف، وهذا يؤكد أن علم النفس والأدب اهتما بدراسة النفس البشريّة منذ فجر المعرفة الإنسانيّة، وأنّ ما فعله علماء النفس المحدثون هو وضع المنهج العلمي للدراسات النفسية.(٣٤)

ولقد تنبّه النقاد والبلاغيون العرب القدماء إلى وجود تلك العلاقة بين الأدب والنفس، وتحدثوا عن دواعي قول الشعر، وما يحدثه النص الأدبي في النفس من أثر،(٣٥) وللشعر دواعٍ تحثّ البطيء، وتبعث المتكلف، ومنها الطمع، ومنها الشوق، ومنها الشراب، ومنها الطرب، ومنها الغضب(٣٦).وإنّما الشعر ما أطرب، وهز النفوس، وحرك الطّباع(٣٧).

يقول عنتر:(٣٨)

هلّا سألتِ الخيْلَ يا ابنةَ مالكٍ إنْ كنتِ جاهِلَةً بما لم تعْلَمي

يُخْبِرْكِ منْ شَهِدَ الوقائعَ أنَّني أغْشى الوغى وأعفُّ عند المَغْنَمِ

فهذه الحياة المصبوغة دائماً وأبداً بالدم، والتي لا مكان فيها إلّا للقوي الـذي يعرف كيف يدافع عن نفسه إذا هوجم، وكيف يهجم إذا دفعته ظروف الحيـاة إلـى ذلك، لا بدّ أن تكون الصفة البارزة فيها هي إجادة الحرب وإتقان أساليب القتال، وأن تكون الفروسيّة هي المثل الأعلى والهدف الأسمى الذي يسـعى إليـه الجميـع، وأن تكون الشجاعة هي قمّة الصفات، ولا سيما إذا ما واكبها قوة احتمال وحسن تبصّـر. هذه التنشئة الحربيّة كانت وقفاً على أبناء العرب ذوي النّسب، أمّـا العبيـد فعملهـم الأساسي هو الرعي والخدمة، فليس لهم أن يتدربوا على القتال.(٣٩)

وكان للعرب اهتمام كبير بصراحة نسب مقاتليهم حتى إنّهم كـانوا يعـدّون اشتراك الأشائب، والهجناء في القتال عاراً، وسُبّة تدعو للهجاء(٤٠)

فمن ذلك قول ابن أم خزنة:(٤١)

نهيتكمُ أن تحملوا هجنـــاءكمْ على خيلكم يومَ الرّهانِ فتُدركوا

يقول عنتر:(٤٢)

فلـربَّ أبْلـجَ مثـل بعْلِكِ بادنٍ ضخـمٍ على ظهرِ الجوادِ مُهبَّلِ
غادَرْتُـــهُ متُعفّـراً أَوصالُـهُ والقـومُ بينَ مُجـــرّحٍ ومُجدَّل

يقول عنتر:(٤٣)

إنّي امرؤٌ من خيْرِ عبسٍ مَنْصباً شطري وأحمي سائري بالمُنْصَلِ
وإذا الكتيبةُ أحجمَـتْ وتلاحَظَتْ أُلْفيـــتُ خـيراً منْ مُعمٍّ مُخْوَلِ

يقول عنتر:(٤٤)

يعيبونَ لوني بالسَّـوادِ جَهالـةً ولولا سوادُ الليلِ ما طلعَ الفجـرُ
وإنْ كانَ لوني أسوداً ففعائلـي بياضٌ ومن كفّيَّ يُسْتنْزَلُ القَطْـرُ

إلا أننا نجده في موضع آخر يمجد انتماءه لأمه السوداء، ويمتدح العرق الحامي، غير آبه بتقاليد مجتمعه وقيمه، يقول:

أنا ابن سوداء الجبين كأنها ضبع ترعرع في رسوم المنزل

يغالب عنترة، من خلال فخره بأمه ودفاعه عن جنسها وسوادها، إحساس الموت القائم الذي عاىشه، نتيجة تلمسه لسواده، وانتقاص الناس له، ويغدو حبه للضبع، هذا الحيوان المتوحش، حتي لكل شيء غير مألوف، كاللون الأسود تماما، الذي لم يكن مألوفة، أو محببا في نفوس العرب وأذهانهم(٤٥).

ويأتي الليل واقترانه بالظلمة رمزاً وتكثيفاً للون السواد ودلالاته. حيث نجد هذا في شعر عنترة بن شداد حين اختار الليل بما يجد من تكثيف السواد وظلمه الأمل ليكون زمناً لرحلة الحبيبة وفراقها له، وإلا فالليل يكون مقمراً وجميلاً ومرتبطاً بالراحة والمتعة إلا أن عنترة اختاره وقرنه بالظلمة ليدل على شعوره باليأس من خلال تعبير ليل مظلم (٤٦):

إن كنت أزمعت الفراق فإنما زمت ركائبكم بليل مظلم

الهوامش

(١) الألوسي، محمود شكري، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، شرح محمد بهجة الأثري،ج٢.

(٢) رحماواتى، ضياء (٢٠١٨). العاطفة والخيال في شعر عنترة بن شداد(بحث استكمالي للحصول على الدرجة الجامعية الأولى من جامعة شريف هداية الله الاسلامية الحكومية جاكرتا: تونس.

(٣) آبادي، ليلا قاسمي وممتحن، مهدي (١٣٩٠). الجمال اللوني في الشعر العربي من خلال التنوع الدلالي. فصلية دراسات الأدب المعاصر. ع٩.

(٤) عنترة(١٩٩٢م)، ديوانه، شرح الخطيب التبريزي، قدم له مجيد طراد، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت،.ص٧.

(٥) الغلاييني، مصطفى (١٩٩٨م)، رجال المعلقات العشر، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ص٢١١

(٦) المصدر السابق، ص٢١١- ٢١٢.

(٧) ديوان عنترة، ص٢٠٨- ٢٠٩.

(٨) لسان العرب، مادة مجد.

(٩) الحميد، سعد بن عبد الله (٢٠٠٧). طرق تخريج الحديث.

(١٠) لسان العرب، مادة طين.

(١١) القرآن الكريم: سورة الزمر، الآية ٦٠.

(١٢) زغريت، خالد (٢٠٠٥). الأساس الواقعي لجماليات اللون في شعر الأغربة الجاهليين. حوليات التراث. ع٣.

(١٣) آبادي، ليلا قاسمي وممتحن، مهدي (١٣٩٠). الجمال اللوني في الشعر العربي من خلال التنوع الدلالي. فصلية دراسات الأدب المعاصر. ع٩.

(١٤) لسان العرب، انظر مادة سود.

(١٥) ديوان عنترة، ص٢٥.

(١٦) عباس، فيصل، الشخصية في ضوء التحليل النفسي، دار المسيرة، بيروت، ط١، ١٩٨٢م، ص١٢٢.

(١٧) شرح ديوان عنترة، ص٨٦

(١٨) حباب، ياسر ياسين(٢٠١٣م)، دراسة نفسية لشخصية المتنبي من خلال شعره، البيداء للنشر، بيروت، انظر ص١٠

(١٩) ديوان عنترة، ص٧٩.

(٢٠) ديوان عنتر، ص٨٣.

(٢١) المصدر السابق، ص٤٩.

(٢٢) المصدر السابق، ص١٠٣.

(٢٣) ديوان عنترة، ص٥٩.

(٢٤) إخلاق الثوب وتقطيعه من خَلُق الثوبُ وأخلَقه. لسان العرب، مادة خلق.

(٢٥) ديوان عنترة، ص٢٢

(٢٦) ديوان عنترة، ص٣٦.

(٢٧) ديوان عنترة، ص٦٥.

(٢٨) يعقوب، عبد الكريم وسلوم، رولا (٢٠٠١). قضية الانتماء الجنسي في شعر عنترة. مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية – سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية. (٢٣) ١٦. ١٢٠-١٣٤.

(٢٩) رجال المعلقات للغلاييني، انظر ص٢٢٦- ٢٢٧.

(٣٠) الشنتمري، يوسف بن سليمان بن عيسى الأعلم، أشعار الشعراء الستة الجاهليين، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٣، ١٩٨٣م، انظر ص١٠٧ــ ١١٠.

(٣١) شفاقوج، لارا عبد الرؤوف أمين، أثر اللون في نفس عنترة من خلال شعره، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ١٩٩٩م، ص٨٥.

(٣٢) شفاقوج، لارا عبد الرؤوف أمين، أثر اللون في نفس عنترة من خلال شعره، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ١٩٩٩م، ص٤

(٣٣) إسماعيل، عز الدين، التفسير النفسي للأدب، دار العودة، بيروت، ط٤، ١٩٨٨م، ص١٣.

(٣٤) شفاقوج، لارا عبد الرؤوف أمين، أثر اللون في نفس عنترة من خلال شعره، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ١٩٩٩م، ص٤.

[٣٥] شفاقوج، لارا عبد الرؤوف أمين، أثر اللون في نفس عنترة من خلال شعره، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ١٩٩٩م، ص٣. .

[٣٦] ابن قتيبة، أبو محمد محمد بن عبد الله بن مسلم، الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، ط٣، ١٩٧٧م، ج١، ص٨٤.

[٣٧] القيرواني، أبو علي الحسن، العمدة في محاسن الشعر وأدبه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٣٤م، ج١، ص١١٩.

[٣٨] عنترة(١٩٩٢م)، ديوانه، شرح الخطيب التبريزي، قدم له مجيد طراد، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، ص١٧١- ١٧٢.

[٣٩] شفاقوج، لارا عبد الرؤوف أمين، أثر اللون في نفس عنترة من خلال شعره، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ١٩٩٩م، انظر ص٧٧- ٧٨.

[٤٠] الأحمد، أيمن محمد، الرق في العصر الجاهلي وأثره في الشعر، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ١٩٩٨م، ص٥٥.

[٤١] ابن حبيب، أبو جعفر محمد، من نسب ألى غير أمه من الشعراء، تصحيح إيلزة شتيتر، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٩٤٢م، ج١، ص٩٢.

[٤٢] شرح ديوان عنترة، للتبريزي، ص١٢١- ١٢٢.

[٤٣] شرح ديوان عنترة، للتبريزي، ص١٢٦-١٢٧

[٤٤] الغلاييني، مصطفى (١٩٩٨م)، رجال المعلقات العشر، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت. ، ص٢٢١.

[٤٥] يعقوب، عبد الكريم وسلوم، رولا (٢٠٠١). قضية الانتماء الجنسي في شعر عنترة. مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية- سلسلة الآداب والعلوم الانسانية. (٢٣) ١٦. ١٢٠-١٣٤.

[٤٦] آبادي، ليلا قاسمي وممتحن، مهدي (١٣٩٠). الجمال اللوني في الشعر العربي من خلال التنوع الدلالي. فصلية دراسات الأدب المعاصر. ع٩.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

المصـــــــــادر

- آبادي، ليلا قاسمي وممتحن، مهدي (١٣٩٠). الجمال اللوني في الشعر العربي من خلال التنوع الدلالي. فصلية دراسات الأدب المعاصر. ع٩.
- ابن حبيب، أبو جعفر محمد، من نسب إلى غير أمه من الشعراء، تصحيح إيلزة شتيتر، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٩٤٢م، ج١، ص٩٢.
- ابن قتيبة، أبو محمد محمد بن عبد الله بن مسلم، الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، ط٣، ١٩٧٧م، ج١، ص٨٤.
- الأحمد، أيمن محمد، الرق في العصر الجاهلي وأثره في الشعر، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ١٩٩٨م، ص٥٥.
- الألوسي، محمود شكري، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، شرح محمد بهجة الأثري، ج٢.
- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ص١٢٦.
- عنترة(١٩٩٢م)، ديوانه، شرح الخطيب التبريزي، قدم له مجيد طراد، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، ص١٧١– ١٧٢.
- القيرواني، أبو علي الحسن، العمدة في محاسن الشعر وأدبه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٣٤م، ج١، ص١١٩.

المراجـــــع:

- الأسد، ناصرالدين،(ب.ت). مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، دار الجيل، بيروت، ص٢١٣.
- إسماعيل، عز الدين، التفسير النفسي للأدب، دار العودة، بيروت، ط٤، ١٩٨٨م، ص١٣.
- حباب، ياسر ياسين (٢٠١٣م)، دراسة نفسية لشخصية المتنبي من خلال شعره، البيداء للنشر، بيروت.

- رمزي، اسحاق، علم النفس الفردي، أصوله وتطبيقاته، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٥٢م.
- زغريت، خالد (٢٠٠٥). الأساس الواقعي لجماليات اللون في شعر الأغربة الجاهليين. حوليات التراث. ع٣.
- شفاقوج، لارا عبد الرؤوف أمين، أثر اللون في نفس عنترة من خلال شعره، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ١٩٩٩م.
- الشنتمري، يوسف بن سليمان بن عيسى الأعلم، أشعار الشعراء الستة الجاهليين، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٣، ١٩٨٣م.
- عباس، فيصل، الشخصية في ضوء التحليل النفسي، دار المسيرة، بيروت، ط١، ١٩٨٢م.
- العقاد، عباس محمود، ابن الرومي (حياته من شعره)، مؤسسة هنداوي، القاهرة.
- الغلاييني، مصطفى (١٩٩٨م)، رجال المعلقات العشر، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.
- يعقوب، عبد الكريم وسلوم، رولا (٢٠٠١). قضية الانتماء الجنسي في شعر عنترة. مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية- سلسلة الآداب والعلوم الانسانية. (٢٣) ١٦. ٢٠-١٣٤.